الجنسانية كحقل معرفي في الدراسات الاجتماعية

أ. مباركة بلحسن
قسم العلوم السياسية – جامعة وهران

بدأ بطمأنتنا، منذ قفزة، بالجسد ورمزيته الاجتماعية والثقافية باعتباره انتاجا وإفرازا اجتماعيا وثقافيا وهويتيا تتحكم فيه التنشئة الاجتماعية والجسدية، بعد أن كان بحثنا يتعلق بموضوع الهوية والنوع الاجتماعي للمرأة، خاصة في البيئة الحسانية[1]، هذه البيئة التي تحمل خصوصيات ومميزات تجعل الباحث فيها يتعمق من أجل معرفتها وفهمها.

إن مثل هذه الدراسة تجعل الباحث يقارب بعدا يعترف الكل بأنه ذو صعب التناول، ألا وهو **البعد الجنساني لهذه العلاقات**، بمجرد أنه ينظر إليه على أنه محظور أو طابو.

---

[1] المجتمع الحساني هو المجتمع الذي ينطق أفراده باللغة الحسانية، وبشكل مجموعة متواجدة في كل من تتدوف بالجنوب الجزائري، وموريتانيا، وجنوب المغرب، والصحراء الغربية، بحيث تعرف هذه المجموعة بثقافتها المتميزة، من لباس وغذاء، وتعرف كذلك بالسلوك النيابي المتميز، وبالأخص الزي الحساني وتميز هذه المجموعة بنظامها الخاص، نظام قبلي محافظ. انظر : مباركة بلحسن : *المرأة والجسد : مقاربة انثروبولوجية في الوسط التلدوني*، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، تخصص "التحول الاجتماعي والهوية"، جامعة وهران، 2004.

هل يمكن حقيقة معرفة مكانة المرأة، بكل أبعادها الإجتماعية والرمزية، دون التطرق لهذا البعد الجنساني الذي لانعترف دائما بأنه جوهري ؟ ليس لأنه مرتبط بإعادة إنتاج القوة البشرية (انجاب، خصوبة، إلخ)، بل كذلك لأنه يتعلق بفضاء أساسي وهو **فضاء المتعة** وإستعمالها.

إنّ المقاربة الأنثروبولوجية للمرأة والجسد في المجتمع الحساني دفعتنا للدخول في حقل علمي حديث في مجال العلوم الاجتماعية، وهو **حقل الجنسانية**، إنطلاقا من ثقافة الجسد، باعتباره مركز النظام الاجتماعي، الأكثر تعبيرا عن ملامحه.

- نحو علم اجتماع الجنسانية

وكان اهتمامنا بالجنسانية، وبالخصوص **الجنسانية النسوية**، بإدراك حقيقي لأهمية هذا الحقل في إنتاج معرفة علمية في مجال علم الاجتماع والأنثربولوجيا، فالجنسانية كمفهوم لم يظهر إلا في بداية القرن التاسع عشر، لذلك وجب علينا التمييز بين الجنس، النوع الاجتماعي والجنسانية :

الجنس : مرتبط بالتمييز البيولوجي بين المرأة والرجل قبل كل شيء، أي الجانب الطبيعي.

النوع الاجتماعي : الجندر، فهو التعبير الاجتماعي للتباينات بين الجنسين الناتجة عن التنشئة المتباينة والثقافة.

الجنسانية : النظرة الشاملة، لاتتعلق فقط بالمباشرة أو الجماع والفعل الجنسي، أي التعريف الضيق، بل تشمل هذه المستويات ومستويات أساسية أخرى تتعلق بالممارسات والتمثلات الخاصة بأبعاد مختلفة من الحياة الجنسية، فالجنسانية هي "مجموع التصرفات بغية المتعة الإيروتيكية (الشبقية)" (Françoise Couchard, 1994)

إنّ دور الباحث في علم الاجتماع هو دراسة التباينات في التصرفات الجنسية، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المعايير والقيم من جهة والممارسات الجنسية من جهة أخرى. إذا، هل هناك نظريات حول الجنسانية ؟ هل هناك ما يمكن أن نسميه **علم اجتماع الجنسانية** ؟

إن الباحث الفرنسي **ميشيل بوزون**، صاحب كتاب "علم اجتماع الجنسانية"، الذي يبدأ بجملة واضحة وصريحة مفادها أنه : "لا يوجد

ما يمكن تسميته بعلم اجتماع الجنسانية[2]، يرى أن هذا العلم ما هو إلا محاولة لتنظيم معارف متشتتة في حقل يتسم بمقاومة لنشأة مقاربة سوسيولوجية له، وهذا يعني أننا أمام مقاربات ومعارف تنتمي لحقول أو تخصصات مختلفة، مما يوحي أنه ليس لدينا نظرية سوسيولوجية للظواهر الجنسانية.

وهناك بعض البحوث التي اهتمت بمسألة الجنسانية، ومن أهمها مجموعة البحوث الميدانية التي اجريت في فرنسا حول السلوكات الجنسانية للفرنسيين، نشرت في التسعينيات، وكانت تهتم بالجنسانية خصوصا بارتباطها بالسيدا.

وبالنسبة للنظرية الأنثربولوجية، كان كتاب الأنثربولوجي مالينوفسكي "الجنسانية وقمعها في المجتمعات البدائية" من أهم ما كتب على الجنسانية في بداية القرن العشرين « La représentation de la sexualité dans la société primitive , 1927 »

أما بالنسبة للفلسفة، فإن **كولن ولس** في كتابه "**أصول الدافع الجنسي**" يرى أنه "لم يقم أي عالم نفساني أو فيلسوف حتى الان بوضع نظرية جامعة حول الدوافع الجنسية، وأما فرويد فقد اقتصر اسهامه في الغالب على التأكيد بأن الطاقة الجنسية الغريزية (وهي ما يسميه بالليبيدو) هي من أقوى وأعمق النوازع الكامنة في وعي الإنسان الباطن ... فيلسوف واحد فقط من بين الفلاسفة المعاصرين هو الذي حاول أن يأتي بنظرية جامعة عن الجنس، هذا الفيلسوف هو جورج باتاي"[3].

غير أن ميشيل فوكو الذي أكد على أنه لا يمكن تعريف الجنسانية بالجمع فقط، بل يجب تعريفها **كتجسيد لعلاقات السلطة والمجال للمعرفة**، يعتبر من أبرز المفكرين الذين ساهموا في إنشاء حقل الجنسانية إذ يقول : "إنما أريد تتبع خيط رفيع هو ذلك الذي ربط

---

2. « La sociologie de la sexualité n'existe pas », Michel Bozon, *Sociologie de la sexualité*, Paris, Nathan, 2002

3. كولن ولس، أصول الدافع الجنسي، ترجمة يوسف شرور وسمير كتاب، الطبعة الثانية، بيروت، منشورات دار الآداب، 1972، ص 22.

ولقرون طويلة بين الجنس والبحث عن الحقيقة داخل مجتمعاتنا" (السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، 2004).

هذا ما يجعلنا نرجع إلى الإسهام الهام لميشيل فوكو في حقل الجنسانية، خاصة في كتاباته حول تاريخها الذي كان مشروعا من مشاريعه الفكرية الكبرى، بعد دراساته الأصيلة حول السجن والحمق خاصة، هذا التاريخ الذي لم يتمكن من إتمامه بعدما نشر أجزاءه الثلاث الأولى التي تدور حول محاور "**إرادة العرفان**" و"**إستعمال المتع**" و"**الإنشغال بالذات**".

إنّ هذه المساهمة التي بقيت على شكل مقدمة عامة لتاريخ الجنسانية كانت في الحقيقة محاولة تقديم صياغة للسلوكات الجنسية في إشكالية عامة تشمل كذلك التمثلات المرتبطة بها. فهكذا أراد الباحث، في مؤلفه إرادة العرفان (1976)، أن يقدم لنا تصورا لتحول هذه السلوكات إلى "قضايا" تشغل الناس وتشكل هكذا حقلا معرفيا.

لم يكن بالفعل هذا الإسهام تاريخا إجتماعيا للتصرفات الجنسية، بل تاريخ شكلنة هذه التصرفات، بمعنى التطرق إليها على المستوى العلمي المتعلق بالإنتاج المعرفي للتصرفات الجنسية، والتمثلات المتعلقة بهذه التصرفات، بدل التحليل الإجتماعي للعلاقة بين الرجال والنساء والعلاقات المماثلة.

فالتصرف الجنسي كان يطرح، حسب ميشيل فوكو، قبل كل شيء كرهان أخلاقي، والخطاب عن الجنس بالنسبة له في الفترة المعاصرة لا يمكن تحديده وتعريفه بالحظر والممنوع فقط، لأنه إتسم بالفيض في الخطابات المختلفة. هكذا يصبح ما قدمه ميشيل فوكو كإسهام مناقضا إلى حد بعيد للتوجهات الفكرية المتعلقة بالجنسانية في عصرنا.

وتبقى في نظر ميشيل فوكو مكانة الجنس في اليونان تتسم بفلسفة المتع التي لا تتناقض مباشرة مع النظرة أو العقيدة المسيحية لأن الجنس كان يمثل مصدر إنشغال وقلق رغم أنه لم يصل إلى فكرة ربطه بالشر.

وكانت هذه المحاولة تسعى لتجاوز الفرضية القمعية التي مفادها أن تاريخ الجنسانية ما هو إلا مسار طويل للمحظورات المتعلقة بالرغبة، فهي بالعكس تؤكد أن عصرنا هو الذي أنتج الجنسانية بمعنى

التصنيف التعسفي لمجموعة التصرفات المسماة بالجنسية، هذه الجنسانية التي لم يظهر مصطلحها إلا في بداية القرن التاسع عشر.

وهذا يعني أن موضوع وهدف الدراسة هو تحليل الممارسات التي من خلالها يركز الأفراد إنشغالاتهم حول ذاتهم ويتعرفون بذلك على أنهم أصحاب رغبات، مما يؤدي إلى تحليل لعملية تشكيل أخلاق انطلاقا من التركيز على المتع وإستعمالها بالنسبة للقرنين الخامس والرابع قبل المسيح في اليونان ("إستعمال المتع"). والتركيز على الذات والإنشغال بها في الفترة اليونانية والرومانية ("الإنشغال بالذات").

لم تكن بالفعل الرغبة والمتعة والفعل الجنسي عند الفلاسفة اليونانيين موضوع إنشغال جوهري، بل كثافة الفعل الجنسي، أو المبالغة فيه، هي التي كانت تطرح في المقام الأول وكان منذرا بها. ومن هنا نشأت أخلاقية للإستعمال الصحيح للفعل الجنسي، مما أعطى له أو بالأحرى تقنية حياة. فهكذا تمّ التركيز منذ البداية على ضرورة الإعتدال وكان على الإنسان الحر أن يمتلك القدرة على التحكم في الذات.

ولم يكن هذا ليؤدي إلى محظورات، لأن النشاط الجنسي كان ينبو على أنه قوة تأخذ من طاقة الإنسان، وبالتالي كان المطلوب منه التحكم فيها.

وهكذا لا يمكن تعريف الجنسانية في المجتمعات الغربية في الفترة المعاصرة على أنها مرتبطة أساسا بالقمع باعتبارها طاقة ثائرة على المجتمع أن يتحكم فيها ويقمعها لصالحه.

فالغرض ليس الوصول إلى نظرية بل إلى تحليلية للسلطة، أي إلى تعريف لميدان خاص مشكل من علاقات السلطة، مما يقتضي تجاوزها بالمعنى "القانوني_الخطابي" المرتكز على مفهومي "قمع الرغبات" و"قانون الرغبة".

إنّ التصور "القانوني-الخطابي" يؤدي إلى نظرة مشتركة للسلطة ترى في الفاعل لعبة لغرائز وتعد بالتحرير الجنسي. إلا أنّ ميشيل فوكو يرى أن هذا المفهوم للسلطة ينطبق على أشكال أخرى منها.

ومن السمات الرئيسية لهذا المفهوم وهذا التمثل العلاقة التي ينظر إليها على أنها سلبية والتي تربط السلطة بالجنس على أساس الإقصاء والرفض والمنع أو المحو. ويبقى هذا التمثل يرى في السلطة

طريق فعل الخطاب.

وتنشأ هنا ما سمي "بدورة المحظور" (لا تلمس، لا تتمتع، لا تظهر)، بمعنى أن السلطة لا تضغط على الجنس إلا بالمحظور، وترتكز مقاربة الجنسانية هذه على مفاهيم أساسية أخرى كمفهوم "مراقبة الجنس" و"وحدة الجهاز"، بمعنى أن تحكم السلطة في الجنس يكون بنفس الشكل، من القمة إلى القاعدة، وعلى كافة المستويات ومهما كانت هذه المستويات (من الدولة إلى العائلة، من الأمير إلى الأب، من خلال القانون، المحظور والمسموح).

وتقتضي هذه المقاربة وجوب التخلص من التمثل القانوني والسلبي للسلطة، والتخلص من تمثل السلطة في شكل قانون محظور، حرية وسيادة. فالسلطة عند ميشيل فوكو تُمارس من خلال نقاط عديدة، ومن خلال لعبة علاقات لامتساوية ومتنقلة.

ويكمن هنا جوهر السلطة وعلاقاتها لأنه لا ينظر إليها من الموقع الخارجي بالنسبة للنماذج الأخرى للعلاقات (السيرورة الإقتصادية، علاقات المعرفة، علاقات جنسية)، بل تكمن في صميمها. ويرى ميشيل فوكو، في النهاية، أنه ليست هناك علاقة تعارضية وشاملة بين المهيمنين والمهيمن عليهم.

فلقد إرتبط الجنس منذ قرون بالسلطة إلى درجة أن قوة الفارس أو الحاكم كانت تعرف بقدر إمتلاكه الثروة والنساء الجميلات القادرات على إثارة رغبة السيد وتلبية شهواته، ويشهد على ذلك تاريخنا العربي الإسلامي خلال الفترة العباسية خاصة.

وشهد بالفعل نظام الإثارة والمتعة تطورا كبيرا عند العرب حتى أن ميشيل فوكو يؤكد أن هناك في التاريخ إجراءان كبيران لإنتاج "حقيقة الجنس"، هما العلم الجنسي الغربي (Scienta Sexualis) والفن الشبقي الشرقي (Ars Erotic) : "أما "الفن الشبقي" فيهدف إلى استخراج الحقيقة من اللذة ذاتها، بالرجوع إلى التجربة والممارسة لا إلى نسق تشريعي أو إلى معيار النجاعة، ويقتضي هذا الفن اللجوء إلى معلم عارف بأسراره، كما أن غايته تتوزع إلى مزايا عديدة (السيطرة المطلقة على الجسد – المتعة الفريدة – استبعاد الموت وتناهيه)، لما

القوة التي تملي قانونها على الجنس، بما فيه القانون الإجتماعي على أساس نظام ثنائي : شرعي ولاشرعي، حرام وحلال، أي أن هناك تحكم في الجنس من طرف السلطة عن طريق اللغة، أو بالأحرى، عن طريق فعل الخطاب.

وتنشأ هنا ما سمي "بدورة المحظور" (لا تلمس، لا تتمتع، لا تظهر)، بمعنى أن السلطة لا تضغط على الجنس إلا بالمحظور. وترتكز مقاربة الجنسانية هذه على مفاهيم اساسية أخرى كمفهوم "مراقبة الجنس" و"وحدة الجهاز"، بمعنى أن تحكم السلطة في الجنس يكون بنفس الشكل، من القمة إلى القاعدة، وعلى كافة المستويات ومهما كانت هذه المستويات (من الدولة إلى العائلة، من الأمير إلى الأب، من خلال القانون، المحظور والمسموح).

وتقتضي هذه المقاربة وجوب التخلص من التمثل القانوني والسلبي للسلطة، والتخلص من تمثل السلطة في شكل قانون محظور، حربة وسيادة. فالسلطة عند ميشيل فوكو تُمارس من خلال نقاط عديدة، ومن خلال لعبة علاقات لامتساوية ومتنقلة.

ويكمن هنا جوهر السلطة وعلاقاتها لأنه لا ينظر إليها من الموقع الخارجي بالنسبة للنماذج الأخرى للعلاقات (السيرورة الإقتصادية، علاقات المعرفة، علاقات جنسية)، بل تكمن في صميمها. ويرى ميشيل فوكو، في النهاية، انه ليست هناك علاقة تعارضية وشاملة بين المهيمنين والمهيمن عليهم.

فلقد إرتبط الجنس منذ قرون بالسلطة إلى درجة أن قوة الفارس أو الحاكم كانت تعرف بقدر إمتلاكه الثروة والنساء الجميلات القادرات على اثارة رغبة السيد وتلبية شهواته، ويشهد على ذلك تاريخنا العربي الإسلامي خلال الفترة العثمانية خاصة.

وشهد بالفعل نظام الإثارة والمتعة تطورا كبيرا عند العرب حتى ان ميشيل فوكو يؤكد أن هناك في التاريخ إجراءان كبيران لإنتاج "حقيقة الجنس"، هما العلم الجنسي الغربي (Scienta Sexualis) والفن الشبقي الشرقي (Ars Erotic) : "أما "الفن الشبقي" فيهدف إلى استخراج الحقيقة من اللذة ذاتها، بالرجوع إلى التجربة والممارسة لا إلى نسق تشريعي أو إلى معيار النجاعة، ويقتضي هذا الفن اللجوء إلى معلم عارف بأسراره، كما أن غايته تتوزع إلى مزايا عديدة (السيطرة المطلقة على الجسد – المتعة الفريدة – استبعاد الموت وتقليله). أما

- مسألة المنهج

وإذا انتقلنا من التساؤل المتعلق بالجنسانية ...
إلى مسألة المناهج والنظريات التي تمكن الباحث من ...
لموضوع المعقد والحساس، وتجعل التراكم المعرفي ...
حقيقة لا يمكن اغفالها وهي أن الجنسانية حقل ...
من حياة الأفراد، خاصة إذا كان البحث يتعلق بالجنسانية ...

فالمعروف أن الجنسانية موضوع بكر، ...
ظاهر الحرية الجديدة، لم يدرس، في بعده النسوي ...
الغرب، وعندما تمت دراسته كان ذلك بنظرة ذكورية ...
المقارنة بالجنسانية الذكورية، بمعنى أن هذا الموضوع ...
هذه كجنسانية خصوصية، أي خاصة بالجنس النسوي.

وكان هذا الخلل في المقاربة مرتبطا بصعوبة ...
معرفة الكائنات البشرية ذكورا أو إناثا لجسدها، هذه ...
الجسد التي أصبحت ضرورية لاستقلالية الإنسان ...

فالسلوك الجنساني لا يمكن ملاحظته بالعين ...
من ممارسة متعلقة بالحسية كما يعبر ذلك ...

ويجد الباحث نفسه يخوض تجربة تقبل ظواهر ...
الأنثوي والجنسانية تقتضي المقاربة النوعية والمقارنة ...

الأنثربولوجية، وذلك بالتركيز على تقنيتين أساسيتين : الملاحظة بالمشاركة والمقابلة المفتوحة والحرة.

ولدينا نموذج في كتاب « La Misere du monde » لعالم الاجتماع بيار بورديو، وهو عبارة عن دراسة جماعية حول ظاهرة التهميش والإقصاء بالخصوص فيما يسمى بالضواحي الفرنسية، عند أبناء المهاجرين وأبناء أبنائهم، هذه الدراسة التي كانت ترتكز على المقابلات المفتوحة القصد منها إعطاء الكلمة لمن ليست له كلمة.

ولقد انتقد البعض بيار بورديو على توظيف هذا النوع من المقابلات المفتوحة الحرة التي تظهر وكأنها تخلت عن القوالب المنهجية المعروفة فيما يتعلق بالمقابلة (المقابلة الموجهة، ضبط دليل المقابلة بتسلسل الأسئلة...إلخ)، وكأنه تخلى عن القواعد الصارمة لما جاء في كتابه "مهنة عالم الاجتماع" (1968) فيما يخص القطيعة الإبستمولوجية وقاعدة اللاوعي.

فالتركيز في هذا النوع من البحوث يجب أن يكون على محاولة فهم الدلالة التي يعطيها الفاعل لمواقفه، لوقعه وممارساته، لأن الدلالة هي التي توجه عمل الفرد والجماعة وتعطي لهم التمثل (مثلا هذا حلال، هذا حرام)، وهو ما نعرفه بعلم اجتماع الفهم لدى ماكس فيبر.

كذلك لا ننسى ضرورة الوصف للفهم والتحليل، كما يقول موريس نوفرجيه "وصف لماذا ومعنوي"، لذلك يجب على الباحث البدء بالوصف لجعل المعارف تتراكم قصد الوصول إلى استنتاجات عامة وإلى مقارنة مع بيئات أخرى قدر الإمكان، لأن الجنسانية من الحقول التي لاحظنا غياب الدراسات حولها، فماذا نعرف عن الجنسانية في مجتمعاتنا ؟ وعن ثقافة الجسد مثلا ؟

وفي الأخير نؤكد في هذا المجال على ضرورة المزج بين المقاربات الإثنوغرافية (أي الاندماج + الوصف) والأنثربولوجية (أي معقولية الظاهرة + إجراء المقارنة)، ما يسميه الفرنسيين الإثنولوجية، فالوصف يختلف عن المفهوم السلبي، وعلينا ألا ننظر إلى الوصف على أنه مستوى أدنى للمعرفة.

فكان خيارنا هو مقاربة هذا السلوك في تجلياته الفردية والجماعية من خلال مفهوم الطقوس الانتقالية الأساسية، هذه الطقوس

التي تعتبر معرفتها مرحلة ضرورية لفهم ممارسات إجتماعية مختلفة ولتي تعتبر الممارسة الجنسانية من أهمها.

تساهم هذه الطقوس الإنتقالية في إنتاج معرفة حقيقية لظاهرة الجنسانية" عبر مراحلها الأساسية، خاصة تلك المتعلقة بالخروج من حال أو مكانة إجتماعية والدخول إلى أخرى، والتي تجعل الفرد ينتقل من مرتبة اجتماعية إلى أخرى.

إنّ البحث الميداني في الطقوس الانتقالية والسلوكات الجنسانية يثير مسالة انثروبولوجية جوهرية تتعلق بجدلية المتعة والألم وعلاقتها بالسلطة والهيمنة والمعرفة.

المراجع :

- بلحسن، مباركة : *المراة والجسد : مقاربة انثروبولوجية في الوسط التلوثي*، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، تخصص "التحول الاجتماعي والهوية"، جامعة وهران، 2004.

- فوكو، ميشيل : *تاريخ الجنسانية*، الجزء 1، *إرادة العرفان*، ترجمة محمد هشام، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004.

- فوكو، ميشيل : *تاريخ الجنسانية*، الجزء 2، *استعمال المتع*، ترجمة محمد هشام، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004.

- فوكو، ميشيل : *تاريخ الجنسانية*، الجزء 3، *الانشغال بالذات*، ترجمة محمد هشام، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004.

- ولد أباه، السيّد : *التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو*، لبنان، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثانية، 2004.

- ولس، كولن : *أصول الدافع الجنسي*، ترجمة يوسف شرور وسمير كلب، الطبعة الثانية، بيروت، منشورات دار الآداب،1972.

- BOZON, Michel, *Sociologie de la sexualité*, Paris, Nathan, 2002.

- COUCHARD, Françoise, *Le fantasme de séduction dans la culture musulmane*, Paris, PUF, 1994.

- KEPES, Suzanne, *Le corps libéré. Psychosomatique de la sexualité*, Paris, Editions La Découverte, Paris, 2003.